وحدة الوجود

وهل هي من الإسلام في شيء

للأستاذ دريني خشبة

قرأت كلمة صديقي الدكتور زكي فراعني أنه لم يقرأ كتاب « رسائل التعليقات » بعد ، أو أنه قرأه كما قرأته أنا ... على حد تعبير الأستاذ الرصافي ، ... أي تلك القراءة السريعة المتقطعة ، التي تبعد بالقارئ عن معاني المؤلف ، وتشط به عن أغراضه ... وآية ذلك ما أراده الدكتور من مساجلتي حول نظرية « وحدة الوجود » . . . وأن يكون أساس المساجلة : أن تترك التفكير في أن هذه النظرية تجني على العقيدة الإسلامية ... وهذا شرط عجيب . . . ولست أوثر أن أقول إنه شرط خبيث !! ما دام أن الصديق الأعز قد ذكر «أن الذوق هو خير ما دعا إليه الأنبياء !»

ولست أدري كيف يدعوني أخي المبارك إلى مساجلته على هذا الأساس العجيب — ولا أقول الخبيث ! — وهو يذكر أنني قلت في كلماتي التي كتبتها عن رسائل التعليقات ، إنني ما كتبت تلك الكلمات ، ولا وددت أن أكتبها ، إلا لأن الأستاذ الرصافي قد ادعى في رسائله أن نظرية وحدة الوجود هي نظرية إسلامية ، بل إنها من ابتداع الرسول الكريم ، فخر الكائنات ، محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنه — أي رسول الله عليه صلوات الله — لم يذكر منها لأصحابه شيئاً ، إلا ما لمح به منها لخليله الصديق — عليه رضوان الله — ... ثم ما ذهب إليه الأستاذ الرصافي بعد ذلك من التخريجات المضحكة التي تعتبر هدماً شاملاً للإسلام ، وتزييفاً واسعاً شاسعاً لما يؤمن به المسلمون ويعرفون أنه الحق من ربهم

فلقد أنكر الرصافي أن يكون القرآن كلام الله . . . وردد عبارة « يقول محمد في القرآن » غير مرة في كتابه المذكور . . . وهو يقحم هذا الإنكار في نظرية وحدة الوجود فيعلله بادعائه أن الرسول الكريم كان يفنى في الله — أو في الوجود الكلي — فناء كاملاً ، ولذا جاز له أن يقول هذا القرآن ، ويزعم أنه يقول الذي يقوله الله ، ويفعل الشيء ويؤمن بأن الله هو الذي يفعل ... وأذكر أنه يستدل على هذا الإفك — وان ندعوه إلا إفكا — بالآية الكريمة : وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ! وهي من الآيات التي طلب إلينا تفسيرها بما ينافي ما قذف به وسواسه في روعه . ناسياً أن الآية قد أنزلت في مناسبة خاصة واردة في مكانها من جميع التفاسير

فهل افترينا على الرصافي في ذلك من شيء يا دكتور زكي ؟ وهل تتفق وجهة نظرك في هذه المسألة بالذات ووجهة نظر هذا الرجل الذي رمانا بما رمانا به من تلفيق وتشويه لأقواله ؟

أنت عندي أشجع كاتب في مصر . بل في الشرق العربي ، وقد تبلغ شجاعتك هذا الحد الذي ذكره آرسطو في كتابه عن الأخلاق ، ولا أذكر الآن ماذا سماه . . . ولن أنسى لك أبداً أنك كنت صاحب الفضل الأول في التعريف بالغزالي بمؤلفك القيم في أخلاقه ، ذلك المؤلف الذي خضت به جحيم حرية الفكر غير هياب ولا وجل ، وأنك كنت في كل كتبك بعد الغزالي شجاعاً كدأبك منذ أخذت نفسك بالتأليف والتصنيف ، بالرغم مما في تأليفك وتصنيفك من تلك (البُقع) التي استطاع هذا الكاتب الفاضل أن يغزوها من ناحيتها

فهل يكفيك هذا الحد في تذكيرك بشجاعتك الأدبية ، فتعلن رأيك صريحاً خالصاً فيما ذهب إليه الرصافي من نسبة القرآن إلى محمد ، معتذراً له بذلك الاعتذار السخيف !!

أعوذ بالله — وأستغفره — من أن يكون كلامي هذا استدراجا لك أن تقول ما لا تعتقد ... فأنت عندي أعظم من هذا وأعلى ... وأعوذ بالله وأستغفره من أن أكون قد قصدت بندائي عليك (بَلْفَك !) حتى تقف في هذا الصراع الفكري إلى جانبي ... فأنا أعظم من هذا وأعلى (ولا مؤاخذة !)

أما يأسك من حرية الرأي ، لأن كل كاتب يحاول أن يكون واعظاً في مسجد ، أو راعياً في كنيسة ، كأن الفكر الحر من

القيود لم يبق له مكان فى الوجود . . . فهو كلام لا نقبله من زكى مبارك فى هذا المجال ... لأن الأستاذ الغمراوى قال فى كتابك العظيم الخالد ـ النثر الفنى ـ ما قال ، ووجه إليك بسببه ما وجه من تهم مثيرة موبقة . ومع ذلك ، فأنت لا تزال بخير يا صديقى ... تمشى فى مصر الجديدة حراً مطلقاً ، كما تمشى حراً مطلقاً فى أحياء الأزهر وسيدنا الحسين والصنادقية وجاردن ستى ، لم يجر وراءك المسلمون ليحاسبوك بالطوب والحجارة على ما اتهمك به مناظرك الفاضل ، ولم يأخذ بتلابيبك الأزهريون لآرائك فى إعجاز القرآن ، ولم يُحدث المسلمون فى مصر ضجة ليضطروا البرلمان إلى مطالبة الحكومة بجمع كتابك وإحراقه فى ميدان الأوبرا أو ميدان السيدة زينب مثلاً !

فحل إذن قضية حرية الفكر التي عملت لها ألف حساب فى كلمتى الأولى عن رسائل التعليقات ، حيث أذكر أننى قلت : « ... وقبل أن نعرض آراء الرصافى نعلن أننا نقدس حرية الفكر ما لم ترم إلى شر ، وما لم تبلبل أفكارنا ، وتعصف بمعتقداتنا ، وتهدم المعايير الأخلاقية الكريمة التى زودنا بها ديننا الذى هو أعز علينا وأكرم من فلاسفة العالم أجمعين » ... والتى أذكر أننى قلت بصدد مصادرة حكومة العراق الشقيق لكتاب الرصافى القديم إن أسلوب مصادرة الكتب أسلوب رث ، وسلاح لا يجمل استعماله فى هذا العصر الذى يأخذ بمبدأ حرية الفكر ...

ولست أدرى ماذا يراد من حرية الفكر أن تكون بعد الذى كانته فى أيامنا هذه من سعة صدر وفسحة مجال ؟! أكان ينبغى أن نصمت فلا نكتب كلمة عن كتاب ينكر فيه صاحبه كل الموجودات ـ إلا الوجود الكلى المطلق الذى يسميه إلهه ـ ؟ أكان ينبغى أن نصمت حينما يقول لنا الرصافى فى كتاب ينشره فى العالم العربى الإسلامى ، إن محمداً هو مبتدع نظرية وحدة الوجود ، وأنه هو مؤلف القرآن ، وأن الأدعية لا داعى لها — ومن الأدعية الصلاة — لأنها لن تغير من القضاء ـ وهو القوانين الأزلية التى لا تتغير ، شيئاً ، وأن كل ما يقع فى الوجود فهو حق ، وأن الباطل هو المحال ، ولذلك تساوت المتضادات . فالهدى كالضلال ، والتقوى كالفسوق ، والخير كالشر .. إلى آخر هذا الهذر الذى يدعى الرصافى أنه تساو أمام الله لا أمام الناس . يريد بذلك استدراك ما أخاتك ـ ياصديقى الدكتور زكى مبارك ـ من مغبّة ذلك المعتقد على الشرائع والقوانين والأخلاق . ويريد أن يطمئنك ، فلا يهلع قلبك ، ولا تجزع نفسك . فيقدم بين يديك هذا الدفع التهافت الذى لا أدرى كيف استقام فى رأس الأستاذ الرصافى حتى يطلب له أن يستقيم فى رؤوس الناس .

ما استواء المتضادات أمام الله ؟! أموافق أنت على هذا الهوس يا صديقى الأعز ؟! أحقاً أن الذى يصيبنا من شر هو من عند الله وليس من عند أنفسنا ؟ ما هذا الجبر المطلق يا دكتور زكى ؟ وإلى أين يؤدى بنا هذا المعتقد الباطل لو أخذنا به ؟! ثم ما هذا الحلول الفاسد الذى يجعل الله فى كل شىء ... بل كل شىء ؟!

ثم يعود الرجل بعد هذا فيثبت أن الإنسان مكلف ، لأنه عاقل ؟! ثم يربط التكليف بثواب وعقاب ، ليسا من جنس الثواب والعقاب اللذين جاءنا بهما ديننا الحنيف ... ولست أدرى أين يكون مناط التكليف مع هذا الجبر المطلق ؟! وعقاب الإنسان فى رأى الرصافى هو ما يلقاه من تبكيت أمام ضميره ... أما النار ودركاتها فتخويف فحسب ، وردت آياته من باب التمثيل .. وأما الثواب فى رأيه ، فهو الاتحاد بالوجود الكلى بعد الموت . أى العودة إلى التراب ... هنا تتم سعادة المرء ! وما جاءت آيات الترغيب فى جنة الخلد الموصوفة فى القرآن إلا من باب التمثيل كذلك ...

فما شاء الله على هذا الثواب وذاك العقاب ! وليهنأ بعد اليوم الذين لا ضمائر لهم فتعاقبهم بالتبكيت على ما يقرفون من أوزار

وما شاء الله على هذا الكفر بالبعث الذى هو أساس متين من أسس العقيدة الإسلامية ، ثم ما شاء الله على هذا التناسخ ـ أو عودة الكائنات بأمثالها لا بأعيانها ـ الذى يؤمن به الأستاذ الرصافى !

ماذا أبقى الرصافي من الإسلام فلم يبدله ولم يؤوله ؟ !

لقد تناول الله ـ جل وعلا ـ فقال : إنه هذا العالم الحادث الذى درسناه فى الفلك فعرفنا أنه نشأ من هيولى أخضعها الله لقوانينه الخالدة التى انتهت بها إلى هذا النظام المتقن البديع الذى

لا يمسكه غير الله بما أبدع له من قوانين !

وقد تناول الرسول فجعله يؤلف القرآن ويموّه على الناس ويخترع وحدة الوجود ويخفي أمرها على الناس ، ويدعوهم إلى عبادة كل الموجودات ، وقد نهاهم عن عبادة الشمس والقمر والنجوم والأصنام والأشجار !

وتناول المعتقدات الإسلامية فأنكر البعث والحساب والعقاب والثواب والجنة والنار والميزان والصراط وجميع السمعيات لأنها من أنباء الغيب ، والعقل لا يؤمن بأنباء الغيب

وتناول العبادات الإسلامية فأنكر الأدعية — ومنها الصلاة — لأنها لا تقدم ولا تؤخر في قضاء الله الذي لا يتبدل ولا يصح له أن يتبدل . فهو كالذين قالوا : يد الله مغلولة ! غلت أيديهم !

ونعى على المسلمين في تعليقه على أقوال مستشرقه الإيطالي الجاهل — في آخر الكتاب الذي بيدك — تمسكهم بحرفية القرآن والتعاليم الإسلامية ، ونسب تأخرهم وانحطاطهم إلى ذلك التمسك

فأين هو ذلك الحجر على حرية الرأي الذي تشكو منه يا صديقي الدكتور ، وقد استطاع الأستاذ الرصافي أن يقول ذلك كله وأن ينشره على المسلمين في كتاب ... فلم يصبه أذى ... ولم تصبه إلا كلمات من أضعف مخلوق مسلم يتهمه الرصافي بأنه يكتب لغرض ... وأن يداً خفية تحركه للرد على تلك التخرصات ! وأنه نسي آداب المناظرة في الرد عليه !

فهل من حرية الرأي أن يقول الرصافي ذلك كله ، فإذا رد عليه مسلم ضعيف مثل أخيك الذي أنت من أعرف الناس به ، كانت حرية الرأي مهددة ، وكانت في عصرنا الحديث شراً منها في العصور التي عاش فيها الجنيد والحلاج والقلمساني وابن عربي وابن سبعين والقونوي ومن إليهم من مشعبذي التصوف ؟

إن ديننا يا صديقي الدكتور هو أول الأديان التي تحض على حرية الفكر ومحاربة الجمود ... وهل صنع رسولنا الكريم ، فخر الكائنات ، محمد بن عبد الله شيئاً غير هذا ؟ !

افتح أية صفحة من كتاب الله تجد فيها حضاً على حرية الفكر ، ومحاربة للجمود الذهني ، والاستعباد الروحي ... وقد فطن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ما في البحث عن ذات الله من تهلكة ، فأوصانا بالإمساك عن الخوض فيها ، والتفكر ما شئنا في المخلوقات جميعاً ، في الأرض وفي السموات وفي أنفسنا . فما الذي يغرينا بنبذ وصاة رسول الله ؟ !

لقد أحسنت حينما قلت : إن نظرية وحدة الوجود هي نظرية فلسفية ، وأنك قد سكت حينما رأيت معاركنا تتجه وجهة دينية فمن الذي وجهها هذه الوجهة ؟ أنا ؟ أم الرصافي الذي جعلها من اختراع الرسول الكريم ، وذهب يتأول لها الإسلام والقرآن جميعاً ؟ !

والعجيب أن يزعم الرصافي أنني ادعيت عليه ما لم يقل حينما نسبت إليه معظم هذه الآراء . وهي كلها آراؤه ساقها في معرض الاستشهاد على ما ذهب إليه بعد إذ جهر في أول الكتاب بأنه يؤمن بنظرية وحدة الوجود بكل ما علق عليها وخرّج منها وأبرز من أسرارها . فلن ينفعه ادعاؤه بأنه إنما كان يستعرض آراء المتصوفة . ولن ينفعه إنكاره أنه متصوف بعد جهره بأنه يؤمن بالنظرية كما عرضها إيماناً لا يرقى إليه الشك

وبعد ... فهل رأيت أن شرطك في استبعاد العنصر الديني من المساجلة التي أرحب بها ، وأعانقك من أجلها عناقاً لا يدري نتيجته بين ذراعي إلا الله ... هو شرط عجيب ... ولا أقول : خبيث ؟ !

من منا الذي سيقهر صاحبه الوفي على المشي فوق الأشواك يا دكتور زكي ؟ ودمي فوق شفتيه

سعد زغلول من أقضيته

ألفـــه

عبده حسن الزيات

المحامي

كتاب قانوني أدبي في ٤١٦ صفحة من القطع الكبير على ورق جيد

يطلب من مكتب المؤلف رقم ١٠ شارع ابراهيم باشا — القاهرة

ومن المكتبات الشهيرة